2- القضايا وأشكال التعبير:

يمكن القول تلخيصا لما سبق، إن أطروحات الاصلاحيين – مهما كان توجههم- لم تخرج عن **الخطوط العامة والملامح الآتية:**

- **انتقاد الواقع الجزائري وتعريته** (نقد المجتمع والتقاليد البالية والآفات الاجتماعية).
- **الدعوة إلى تغيير الواقع** سواء الموروث عن عصور الانحطاط أو المتولد عن الاستعمار الفرنسي (الاصلاح).
- **الدعوة إلى التعلم والعلم** خصوصا العلم الحديث الوافد من أوروبا، والملاحظ أن الخطاب الاصلاحي كله متمركز حول العلم.
- **التمركز حول الدين** من خلال الدعوة إلى إصلاح الخطاب والممارسة الدينية وتنقيتها من شوائب بعض ممارسات الطرقية وعصور التخلف.
- **ظهور ملامح وعي وفكر جديد** هو ثمرة الاحتكاك بأفكار عصر النهضة وبالأفكار الأوروبية الحديثة (مما سيمهد للحركة الوطنية والمطالب السياسية).

يقول ابن باديس (1889-1940) في العدد الأول من جريدة المنتقد (جويلية 1925) [وهي الانطلاقة الفعلية لحركة الاصلاح الديني]: " ولا يستقيم سلوك أمة وتنقطع الرذيلة من طبقاتها وتنتشر الفضيلة بينهم إلا إذا تغذت عقول أبنائها بهذا الغذاء النفسي، فنحن ننشر المقالات العلمية والأدبية وكل ما يغذي العقول من منظوم ومنشور من صحف الشرق والغرب وأقلام كتاب الوطن، **ونقاوم كل معوج من الأخلاق وفاسد من العادات ونحارب على الخصوص البدع التي أدخلت على الدين** الذي هو قوام الأخلاق فأفسدته **وعاد وبال ذلك الفساد علينا وتأخرنا من حيث يكون تقدمنا** وسقطنا مما لا نرتفع إلا به لما شوهناه بإدخال ما هو ضده عليه. ونُحَسِّن ما كان من أخلاق الأمم حسنا وموافقا لحالنا وتقاليدنا ونقبله، ونُقَبِّح ما كان منها قبيحا أو مباينا لمجتمعنا وبيئتنا ونرفضه. **فلسنا مع الجامدين في جمودهم ولا مع المتفرنجين في طفرتهم وتنطعهم**. والوسط العدل هو الذي نؤيده وندعو إليه" (*المنتقد، ع1، س1، ص: 1- 1925*).

وقد رسم هذا النص الطويل من الوثيقة التأسيسية معالمَ الحركة الاصلاحية وقدم برنامجها لسنين طويلة، وأوضح في نفس الوثيقة أن الوسيلة التي ستعتمد إنما هي النقد.

الشعر والإصلاح الديني:

هذا المنهج ستعكسه الأعمال الأدبية المختلفة، " فالشعر الجزائري بعامة كان ينتسب إلى الحركة الاصلاحية" (*سعد الله، دراسات في الادب، ص: 36*)، نقرأ مثلا حول حالة الجمود وحث الناس على طلب العلم للنهوض قول **محمد اللقاني السائحي** (1895 – 1970) (*محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر 1/ من 36 إلى 39*):

بنِي الجزائر هذا الموتُ يكفينا **لقد أُغِلّتْ بحبلِ الجهلِ أيدينا**

بنِي الجزائر هذا الفقرُ أَفْقَــدنا كُلَّ اللذائذِ حينا.. يَقتفِي حينا

بني الجزائر هذا اللهوُ أَوقَعنا في سُوء مَهلكةٍ عَمّت نوادينا

بني الجزائر قَومِي ما لكم غُرَبا عن نيل مكرمة تُرضي المحبينا

بني الجزائر قَومِي استيقظوا، فلَكَمْ أَذاقَنا اللهوُ والإهمالُ تَهويــنا

بني الجزائر ما هذا التقاطعُ من دون البرايا،عيوبٌ جُمّعت فينا

فقر، وجهل، وآلام، ومَسْغَبـة، يا ربِّ رحماك هذا القَدْرُ يَكفينا

فالجهلُ قاتلُنا والفقرُ مهلكُنا والبأسُ خاذِلنا واليأس مُرْدِينا

مُـدُّوا يديكم، فَهَا كَفِّي لنتحد إن التفــرق يا لَلْعار يُؤذينا

هيا نَؤُمُّ زلالَ العلم نَشرَبُـــــــه فالجهل يقتلنا والعلم يحيينا

الناس بالعلم شَقُّوا الأرضَ واخترقوا، وشَيدُوا، و بَنَوْا عِـــزًّا وتمكينا

الناس في الجو طاروا، حَلَّقوا، وعَلَوْا ونحن نحسبهم جهلا شياطينا

الناس بالعلم نالوا كل مكرمة ونحن بالجهل لا يرجى تلاقينا

... يا دهرُ مالَكَ لا ترثي لحالتنا يا دهرُ رفقا بأقوام مُصابينا

إن كان شَأْنُك إرضاءَ العدو بنا فدُونَ هذا به يرضى مُعادينا

وهكذا فهمنا من النص أن الشاعر أرجع كل أسباب الفقر والضعف والجوع إلى الجهل وترك العلم حتى صارت الاكتشافات الحديثة بالنسبة إلينا أعمالا شيطانية.

وهي نفس الرؤية يعبر عنها **محمد السعيد الزاهري** (المصدر السابق، 69/1):

ويا ويحَ أحرارَ الجزائر كَمْ، وكَمْ يَهيجُ عليهم من هُموم وبَلْبَال

لقد كَسَرَ الناسُ القيودَ وحطموا ونحن بقِينا في قيود وأغـــــلال

.. وقد لبسَ الناسُ العلوم جديدةً ونحن لبسناها من الخَلِقِ البالي

.. وأصبح هذا الناس أحياءَ كلّهم ونحن بقينا اليوم في زيٍّ تمثال

فما أحدٌ منا يُحـــــــرِّك ساكنــا لدى نُـوَبٍ تغشى البلادَ وأهوال

فهو يستعيد فكرة (أغلال الجهل) التي سبقت مع اللقاني ويطورها، مقارنا أمته بالأمم الأخرى التي كسرت تلك القيود، ويوضح أن الجهل ليس عدم القراءة والكتابة بل الانغلاق في دائرة العلوم القديمة البالية وهو بالنسبة إليه تحجر وموت، بينما أقبل الناس على العلوم الجديدة التي تمنح الحياة وللأسف لا يتحرك أحد ليغير هذا الوضع (وينظر أيضا الطيب العقبي (المصدر السابق، 143/1).

لكنه يعود في نص آخر ليعبر عن أمله، يقول (المصدر السابق، 73/1-74):

تَوفرَ حَظُّ الناسِ في العلم والهدى ومازال منقوصًا نصيبُ الجزائر

فيا ليتَها تَحظَى من العلــمِ بالذي يَردُّ عليها ما مضى من مفاخر

..طوى الدهرُ قومِي، غيرَ أنَّ حديثَهم سيبقى مع الأيام رغم المُكَابــر

سيُحييهِــمُ النشءُ الجديــدُ، فإنَّــه يَغارُ على أجداده في المقابــر

فرغم أنه ينطلق من انحسار العلم في الجزائر، يتمنى أن نقبل عليه ونستعيد أمجادنا، والأمل كله معقود على النشء الجديد الذي سيتربى في كنف الإصلاح والتجديد.

وسنقرأ لكل شعراء النخبة في فترة النهضة والاصلاح الجزائريين مثل هذه الدعوات.

لكن الموضوع الذي شغل بال شعراء الحركة الإصلاحية إنما هو **الإصلاح الديني** وهو مصطلح "اكتسب مفهوما خاصا، يتمثل في الدعوة إلى تطهير الفكر الاسلامي من رواسب عصر الضعف والجمود العقلي، وربط العقيدة الاسلامية بالحياة الاجتماعية تتفاعل معها وتساهم في تغيير الواقع الاجتماعي السيئ وتحقيق النهضة المنشودة" (*أحمد شرفي الرفاعي، الشعر الوطني الجزائري، ص: 53*). وهذا الخط الفكري لم يتوقف منذ قرون خلت، ويمكن الاشارة إلى منظومة المولود بن الموهوب (في *البدع*) التي شرحها أستاذه المجاوي (*اللمع في نظم البدع*). فالمقصود محاربة البدع والخرافات التي ارتبطت ببعض مذاهب ورجال وممارسات الطرقية، وقد هاجموهم بقوة، وسخروا من أفكارهم وسلوكهم خاصة في احتفالات (الزردات) أو أعراس الشيطان كما سماها البشير الابراهيمي (*آثار الابراهيمي، 319/3*).

يقول **محمد السعيد الزاهري** مصورا اعتقادات الأتباع في شيخ الطريقة:

كانوا طَوائفَ شتَّى، كُلّ طائفةٍ تُطيعُ شيخًا لهَا في كلّ ما زَعَما

إنْ قال إني وَلـيٌّ صَدقوهُ، وإن هُوَ ادَّعى الغيبَ قالوا أَحكمُ الحُكَما

وإن تَعلَّمَ بعضَ الشيء تَهجيةً قليلةً هتفُـــوا يا أَعلمَ العُلــمَـا

وإن هو ارتكبَ الفحشاءَ فاضحةً فلا محالــةَ، معذورٌ و قدْ أثِــما

أو احْتَسَى الخمرَ قالوا إنها عَسل ولا غرابَــةَ في هـــذا ولا جَرما

أوْ ادعَى أنَّ خيرَ الخَلْقِ يخدُمه فما اعتدَى عنهمُ فيها، و لا ظلما

أوْ لم يُصَلِّ رأوْه حَسْبما زَعَموا يُقيمُها، إذ يزورُ البيتَ والحَرَمَا

إذا بكَى حسِبُوا الأيامَ باكيـة ويضحكُ الدينُ والدنيا إذا ابتسما

في كَفهِ المَنعُ والإعطاءُ عندهمُ، والدينُ والخيرُ فيما شادَ أو هَدَمَا

والنصوص هنا كثيرة جدا، لكن ينبغي التنويه بقصيدة **الطيب العقبي** الطويلة (إلى الدين الخالص– *جريدة المنتقد 1925*) ووصفها مبارك الميلي بأنها " **أول معول في هيكل المقدسات الطرقية**، ولا يعلم مبلغ ما تحمله هذه القصيدة من الجراءة، ومبلغ ما حدث عنها من انفعال لدى الطرقية، إلا من عرف العصر الذي نشرت فيه، وحالته في الجمود والتقديس لكل خرافة في الوجود" (*رسالة الشرك ومظاهره، ص: 447*) وهي هجوم قوي جدا لا هوادة فيه، ويبدأها بقوله:

ماتتِ السُنّة في هذي البلاد قُبِر العلم، وساد الجهـل، سادْ

وفَشا داءُ اعْتقـادٍ باطـــلٍ في سهول القُطر طُرًّا، والوهادْ

عبَدَ الكلُّ هَـــواءَ شيخِـه جَـدُّه ضَـلَّ، فضَـلَّ الاعتقـــادْ

حَكَّموا عاداتِهم في دينِـهمْ دُونَ شَـرْعِ الله، إذْ عَمَّ الفسـاد

وهاهنا إصرار على فصل علاقة الطرقية بالدين، فهي محض جهل وعبادة لأهواء أشخاص وتكريس لعادات بالية. ويقول فيها:

لا أَرى الأشياخَ في قَبضتِـهم كلُّ شيء، بل هُمُو مثلُ العباد

.. لستُ من قوم على أصنامِهم عَكَـفُوا، يدعونها في كل نَـــادْ

كُلما أَنشَـــد شَـــادٍ فيهِـــمُ قَوْلَ شِـرْكٍ، ذهبوا في كل واد

كَمْ بنَوْا قبـرًا وشَادُوا هيكـلاً وصُروحُ الغِيّ بالجهل تُشَـاد

إنَّـــني أَلعَـنُهـــم مما بَـــدَا حاضرٌ في إفكِه منهم، وبَـاد

وأنا خَصْم لهُـم أُنكِـــــرُهم كَيفَـما كانوا؛ جميعا أو فِـرادْ

عَلَّمونا طُـرُقَ العجـــز وما منهمُ، مَن لِسوى الشر أفـــادْ

طالما جَدَّ الورى في سيرهم وهمُ كَمْ صَدَّهم طُـولُ الرقـاد

.. لا أنادي صاحبَ القبر أَغِثْ أنتَ قُطْبٌ أنتَ غَوثٌ وسِنَاد

قائما أو قاعدا، أدعـــو به إنَّ ذَا عِنـديَ شِرْكٌ وارتِـداد

لا أُناديه، ولا أدعُو سِـــوى خالق الخلـــق رؤوف بالعباد

لقد اخترنا مقاطع فقط تبين أهم المحاور التي ركز عليها في هجومه، فليس هناك من قدسية لأشياخهم، بل هم بشر يخطئون ويصيبون، كما أن اللجوء إلى الأضرحة وطلب العون من الأولياء هو شرك وتكريس للعجز في الأمة التي ينتظر منها النهوض والعمل والتحرر.